

علاقة السلطة المركزية بالجنوب المغربي خلال القرنين 19 و20م حالة مجال أسا 1830-1934م

سويلام بوغدا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر - أكادير

مقدمة

يطرح موضوع العلاقة بين المخزن ومجال أسا، أو بالأحرى الحضور المخزني بالمجال ذاته، عدة إشكالات سيما على مستوى مقارنة الموضوع من الناحية التركيبية والتحليلية. ويأتي هذا التعقيد نظرا لطبيعة المجال والبنى القبلية التي كانت تشكل بنياته إلى حدود الربع الأول من القرن العشرين. لهذا فالسؤال لا يتمحور حول الحضور المخزني أو عدمه، وطبيعة هذا الحضور وأشكاله، بل يتعلق الأمر بمدى تأثير هذا الحضور على المجال وعلى القبائل معا. فتركيب المعطيات من الناحية الكرونولوجية حول الحضور المخزني بمجال أسا يبدو أمرا مُستساغا ومتاحا بفعل وجود مستندات ومعطيات تمكن الباحث من تتبع مسار العلاقة بين المخزن ومجال أسا وقبائله. كما أن المقاربة المنهجية لهذا الموضوع أصبحت من الأمور التي أغنت بها الأسطوغرافية المغربية الحقل التاريخي في موضوع المخزن وعلاقته بالقبائل النائية.

غير أن مختلف هذه المواضيع والدراسات وبغض النظر عن طبيعتها، لا بد لها من ثنائية المخزن والقبائل على اعتبار أنهما المحوران الفاعلان على المستوى السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، في تاريخ المغرب بشكل عام. فلا يمكن تناول موضوع ما من تاريخ المغرب دون استحضار دور المخزن والقبائل في هذا الإطار. ونروم من خلال هذا

الطرح تجاوز القراءة التقنية أو الفاحصة لتاريخ العلاقة بين المخزن المغربي ومجال أسا وقبائله خلال القرنين 19 و20 الميلاديين، إلى القراءة الإشكالية التي تراعي السياق التاريخي لهذه العلاقات والظروف المتحركة فيها. ولا يمكن في نظرنا فهم علاقة المخزن بمجال الجنوب المغربي إلا إذا تم تبني هذا التصور الذي يمكن على ضوءه تحليل كل المعطيات والمستندات المتصلة بالموضوع. من ثم، محاولة إضفاء مفهوم جديد على المصادر المخزنية والمحلية والأجنبية التي تؤرخ لتاريخ العلاقة بين المخزن والقبائل من حيث التعميق والتوسيع والشمولية والاندماج.

تماشياً مع هذه التصورات ولتحقيق غايتها، نطرح أسئلة أخرى حول البحث في تاريخ العلاقات بين المخزن والقبائل بالجنوب المغربي بشكل عام. تتبنى القراءة الأفقية لتلك العلاقات بدل اعتماد المقاربة العمودية الأحادية الجانب التي صارت عليها العديد من الدراسات. لذلك، نطرح القضايا التالية للنقاش: ما مفهوم المخزن في عرف القبائل بالجنوب المغربي؟ بمعنى، هل استوعبت قبائل الجنوب المغربي مفهوم المخزن؟ وإلى أي حد تعاملت معه وفق أعرافها ومقتضياتها القبلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية؟ هل استوعبت قبائل الجنوب المغربي المؤسسات المخزنية وآليات اشتغالها وتمثلاتها على مستوى المجال؟ ما مدى استيعاب القبائل في الجنوب المغربي لإيديولوجية المخزن وسياسة تعامله مع المجال والقبائل خصوصاً على مستوى المناطق النائية؟ ما مدى استيعاب قبائل الجنوب المغربي لمفهوم الدولة المركزية، وحدودها السياسية، ومفهوم الوحدة السياسية؟ وهل استوعب المخزن المغربي خلال القرنين 19 و20 الميلاديين الطبيعة القبلية المركبة للجنوب المغربي وآليات وطرق تديرها للشأن السياسي والاجتماعي والاقتصادي للمجال؟ وهل كانت قبائل الجنوب المغربي، خصوصاً قبائل الصحراء، تشكل تكاملاً أم تعارضاً مع المخزن، طيلة القرون الثلاثة الماضية؟

قبل الإجابة عن كل هذا مختلف هذه الأسئلة أو إثارة النقاش حولها، فإنه ثمة

أمور جوهرية تستوقف الباحث في تاريخ العلاقة بين المخزن المغربي والقبائل من جهة، والمخزن والمجال من جهة ثانية. يتعلق الأمر بمختلف المضام التي على ضوءها يمكن الكشف عن طبيعة تلك العلاقات وظروفها وأثرها على المجال وعلى القبائل.

1- المخزن ومجال أسا 1830-1934م: إشكالية المصادر

للإجابة عن مختلف هذه الأسئلة ضمن الإشكالية العامة المشار إليها أعلاه، فإنه لا بد من الاعتماد على مصادر تثبت وتكشف أوجه تلك العلاقات وطبيعتها والظرفية المتحركة فيها. غير أن شح المستندات المحلية في هذا الشأن يجبرنا على تبني القراءة الأحادية الجانب من الناحية المصدرية والاعتماد إجمالاً على الأرشيف المخزني ذاته.

يرجع السبب في ذلك إلى كون القيادة أو المشيخة لدى قبائل أيت أوسى لم تكن تعتمد على التدوين في الممارسة السياسية للحياة اليومية إلا نادراً. وكانت جل القرارات تُتخذ وتُنفذ شفهيًا دونما أي اعتبار لعملية التدوين كما هو عليه الحال في مشيخات وقيادات مجال سوس. وهذا الأمر فوت على الدارسين لعلاقة القبائل بالمخزن في الجنوب المغربي إمكانية تتبع مدى الحضور المخزني في المجال ومدى استيعاب القواد والشيخوخ لآليات تنفيذ الأحكام المخزنية وسياسته التي كانت تعتمد كلياً على أولئك القواد والشيخوخ وبعض الزعامات المحلية والدينية.

ويُعزى هذا الأمر من جانب آخر إلى طبيعة نمط الترحال الدائم كجزء محوري في بنية قبائل أيت أوسى الرحل. ومن ثم ظلت الحياة السياسية لهذه القبائل تُتداول شفهيًا، سواء بين قواد القبائل أو بين مختلف الزعامات المحلية بالمجالات التي كانت ترتادها قبائل أيت أوسى. والإشكال الثالث المتصل بالمادة المصدرية حول علاقة قبائل أيت أوسى بالمخزن خلال القرنين 19 و20 الميلاديين، كون المراسلات لم تكن تتم عادة بين المخزن المركزي والقواد الذين تم تعيينهم من داخل قبائل أيت أوسى بطريقة مباشرة.

وكان ذكرهم يأتي ضمن المراسلات الموجهة أساسا إلى قواد قبائل تكنة وعلى رأسهم القائد ولد بيروك.

فهل كان قواد قبائل تكنة يفرضون وصاية على قواد قبائل أيت أوسى؟ أم أن قواد قبائل أيت أوسى لم يستوعبوا مفهوم القيادة ومنظومة المخزن وتركيبته وآليات اشتغاله؟ أم أن قواد القبيلة ظلوا حبيسي البنية السياسية القبلية التقليدية لأيت أوسى والتي كانت تعتمد على الصراعات البينية والخلافات مع القبائل الأخرى؟ ومن تم، انقطاع الصلات بين القواد الأيتوسيين وبين المخزن المركزي بشكل مباشر وهو ما يفسر انعدام المراسلات بينهم؟

وإذا بدت هذه القراءة مقبولة، فإن ثمة أمور تبدو أكثر واقعية حول المصادر المحلية عن تاريخ مجال أسا وقبائله. فإلحاق مجال أسا وقبائله ضمن قبائل تكنة ومجال وادي نون لم يسمح للخصوصيات المحلية بالبروز بشكل جلي يمكن من تتبع شكل العلاقة بين المجال وقبائله وبين المخزن، وتطورها، والظروف المتحكمة فيها. لذلك فإن دراسة هذا الموضوع تستلزم الاستعانة بأرشيف القيادة بمجال تكنة ودار إيليج من جهة، والأرشيف المخزني والأجنبي من جهة أخرى. كما أن فقر الأخبار المحلية في مصادرها يعتبر نتيجة لبروز الدولة المركزية القوية البنين، وهو ما يدفع الباحث إلى تبيين التطورات في التاريخ المحلي عبر تأويل للتطورات العامة أو أن يتلمس ذلك التاريخ والتطورات من خلال مؤشرات نادرة. ولا غرابة أن يدفع التقوي المركزي بالحياة المحلية إلى الهامش، إذ إن الحالتين تنتميان إلى نمطين اجتماعيين وسياسيين مختلفين متناقضين على الأمد البعيد¹.

¹ عبدالرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن ما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 25، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1995، 65.

فبروز مجال وادي نون كمركز لقيادة أهل بيروك من الناحية السياسية وكزعامة لمختلف قبائل تكنة، وتنامي قوته الاقتصادية من خلال التجارة الصحراوية؛ جعل من تاريخ مجال أسا تاريخا هامشيا بالرغم من الدور السياسي والحربي الفاعل لقبائل أيت أوسى على مستوى مجال وادي نون والصحراء طيلة الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر إلى بداية منتصف القرن العشرين الميلادي.

إن ما توافر لدينا من المستندات حول تاريخ العلاقة بين المخزن والقبائل بمجال أسا لا يعدو أن يكون في مجمله مراسلات بين قواد أيت أوسى وبعض الزعامات والقواد بمجال وادي نون أو عموم مجال درعة السفلى. وتشح كليا المراسلات الموجهة من هؤلاء القواد الأيتوسيين إلى المخزن المركزي، أو القيادة المركزية لأهل بيروك بمجال وادي نون أو إلى عمال المخزن الأقرب إلى مجال أسا كترنيت وتارودانت وغيرها. وهكذا ظلت مختلف القضايا ذات الصبغة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتي تقتضي التوثيق ظلت إلى عهد متأخرة تتم بين القيادات والزعامات المحلية عن طريق وساطة "المُرْسُول" أو "الرَّقَاص".

أما مختلف الوثائق التي تم الحصول عليها ذات الصلة بالقواد الأيتوسيين فلا تعدو أن تكون سوى مراسلات بينهم وبين بعض الفقهاء والزعامات المحلية الأخرى كالشيوخ. وتناولت في مجملها قضايا الخلافات حول الأراضي الزراعية البورية ومشكل المراعي والسرقات وسواها من المشاكل التي كانت تنشب بين مختلف المكونات القبلية داخل مجال أسا أو خارجه. ومن ثم فإن منظومة القيادة الأيتوسيين وبنيتها ظلت، وفق هذه المظان، حبيسة إطار البنيات القبلية السائدة وما يميزها من تدبير للصراعات الداخلية عوض الانخراط في القضايا ذات البعد السياسي، والاقتصادي التي استأثرت باهتمام المخزن المركزي. وينبج عن مثل هذه القضايا وحجمها تراكم هائل للوثائق والمستندات التي هي عمدة الباحث في مقارنة موضوع علاقة المخزن بالقبائل في الجنوب المغربي.

واستنادا إلى مختلف هذه المعطيات والاستنتاجات حول إشكالية المصادر في موضوع العلاقة بين المخزن المركزي والمجال من جهة، وبينه وبين القبائل من جهة ثانية، تستوقفنا أسئلة جوهرية حول جذور القيادة وسط قبائل أيت أوسى. فهل هي من نتاج البنى القبلية التي كانت سائدة طيلة القرن 19م، أم أنها من صنع المخزن في محاولة منه لضبط قبائل محاربة عن طريق اختيار قواد من داخل النسيج القبلي لأيت أوسى؟ وكيفما كان التعليل والجواب عن هاذين السؤالين فإنه بالضرورة سيجيب عن سؤال حضور مفهوم مجال أسا في الوسط المخزني، ومفهوم المخزن في عرف القبائل بمجال أسا ولدى قبائل أيت أوسى الرحل.

2- المخزن المغربي ومفهوم المجال

أثار موضوع بسط المخزن المغربي سيطرته وإدارته على أجزاء من تراب المغرب طيلة القرن التاسع عشر وقبلة، نقاشا حادا ومستفيضا حول من يُقربان المخزن كانت له سيطرة على جميع أطراف المغرب بما فيها الهامشية والنائية. وبين آخرين ذهبوا إلى القول إن إمكانيات المخزن المادية والعسكرية والإدارية لم تمكنه من بسط كامل سيطرته على المجال المغربي برمته¹. وظلت بذلك تلك الأطراف خارجة عن طاعة المخزن ردحا من الزمن والتي أُطلق عليها "بلاد السبية".

وإذا كان تعبير "بلاد السبية" قد أخذ بدوره من الباحثين مأخذا يكاد يوازي منزلة الفاعلين فيه (المخزن والقبائل)، فإنه في آخر الأمر يعبر وبشكل جلي عن الظرفية السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، المتعلقة بذهنية وتفكير المجتمع المغربي،

¹ أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان 1850-1912، منشورات جامعة محمد الخامس أكادال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، أطروحات ورسائل 1، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1403هـ/1983م، 588.

التي أنتجتته كتعبير عن شكل من الأشكال التي كانت تجسد إلى حد كبير طبيعة علاقة المخزن المغربي ببعض القبائل في الأطراف النائية. ومازال هذا المصطلح مُتداولاً عند العامة والخاصة للتعبير عن عدم تطبيق القانون والخروج عنه. كما أن مختلف الباحثين في التاريخ كثيراً ما يسمعون مصطلح "السيية" على لسان الرواة للتعبير عن الحالة التي كانت عليها القبائل على الأقل إلى حدود ما قبيل استقلال المغرب. لذلك، فإن هذا المصطلح له جذور سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية نابعة من ظرفية خاصة كان يعيشها المجتمع المغربي طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين. وشكل بذلك جزءاً من بنية القبائل السياسية سيما في المناطق البعيدة عن السلطة المركزية. ونروم من خلال هذا الطرح معرفة درجة حضور مفهوم المجال في عرف المخزن، أو بالأحرى لدى المؤسسات المخزنية، خصوصاً في ما بات يُطلق عليه "بلاد السيية" تعبيراً عن مناطق جغرافية بعيدة عن المركز والتي لا تخضع كلياً أو جزئياً لسلطة المخزن.

ويعتبر مجال أسا، وهو مجال انتقالي بين سوس والصحراء، مجالاً نائياً وقلماً تجدد له ذكراً في المصادر المخزنية إلا نادراً أو ملاماً. ويُفترض أن يكون مرد ذلك، خلوه من أحكام السلطان أو كونه في حالة الإهمال مع وجود ممثلي المخزن. واستناداً إلى بعض التقارير الأجنبية وبعض الكتابات الوطنية التي سارت على دربها، فإن الحدود السياسية للمغرب في القرن 19م لم تكن سوى تلك التي كان يسيطر عليها المخزن بشكل مباشر وفعلي. لكن مثل هذه الادعاءات والاستنتاجات فندتها مستندات ووثائق مخزنية عبرت في الأصل عن حضور مفهوم المجال، ذات الحدود الطبيعية والسياسية، في عرف المخزن ومؤسساته واستيعابه لمفهوم الدولة الشاملة طيلة قيام الدول بالمغرب¹.

كان مجال أسا وطيلة القرون الماضية كان تحت نظر المخزن ومؤسساته. فمن خلال

¹ عادل النفاقي، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب حفريات في أدب الرحلة-القرن 16 في الهوية والتدين والثقافة، إفريقيا الشرق، المغرب 2015، 77-78.

مذكرة وجهها أحد المنتسبين إلى المؤسسة المخزنية في القرن 19م في شأن إنشاء دواوين للدفاع عن البلاد على شكل خارطة شاملة للمغرب ضمت كل أجزائه، نجد من ضمنها مجال أسا على اعتباره الأقرب إلى بلاد شنقيط¹. والشاهد عندنا قول علي بن محمد السوسي السملالي²، في رسالته إلى السلطان المولى الحسن الأول:

"وأيت عطا وأيت أمريبط وادا أبلال ديوان. والفيجا من أسا منتهى الغارة إلى نصف الفيجا ديوان. ونصبيها إلى جبل أكلو ديوان. ودرا³ وما انضاف إليها وما حولها ديوان. وشنكيط ديوان، لأن منتهى العمارة امسنا وقليل ما بين أسا وشنكيط. وقال في الأثر أولياء السودان يحضرن ديوان أسا. وهذا الترتيب بحسب من له المعرفة في الإجمالية. وأما من له المعرفة التامة كسيدنا يرتب الأمر ترتيبا حسنا. وهذا ما عندي من النصيحة، فإن قبلت فذلك فضل من سيدنا، وإلا فقد أدت الواجب. فليسامخي سيدي في الفضول. 21 ذي الحجة عام 1304. عبدك علي بن محمد السوسي السملالي كان الله له آمين"⁴.

¹ مذكرة علي بن محمد السوسي السملالي إلى السلطان مولاي الحسن الأول بتاريخ 21 ذي الحجة 1304هـ/10 شتنبر 1887م. المصدر: مديرية الوثائق الملكية بالرباط تحت عدد: A 17-105. Cote: A 17-105. وحول هذا الموضوع ينظر: - أحمد العجاري، نظرية التحديث والمواجهة عند علي السوسي السملالي من خلال كتابه: "عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة". ضمن: ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 7، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 1983، 91-111.

² هو علي بن محمد فتاح السوسي السملالي (ت: 1311هـ/1893م)، من ذرية سيدي محمد التزكورتني من بني بعقيل بسوس. درس بسوس والصويرة ومراكش وفاس. كان مدرسا للجيش في عهد السلطان المولى عبدالرحمان. كما عينه السلطان محمد الرابع أستاذا مدرسا للعلوم بالقصر الكبير. وعينه السلطان المولى الحسن الأول وسيطا له لدى قبائل المغرب الشرقي. وتولى مهمة كاتب ومستشار للبعثة التي أرسلها السلطان الحسن الأول للحدود سنة 1301هـ الموافق 1884م والتي كان على رأسها المولى عرفة أخو السلطان المذكور. كما عمل مستشارا لنفس السلطان في عدة قضايا ومناسبات. نقلا عن: أحمد العجاري، م. س. 95-96.

³ درا: هكذا كما وردت في المخطوط والمقصود: درعة.

⁴ مديرية الوثائق الملكية بالرباط. محفظة عدد: A 17-105. Cote: A 17-105.

إن حضور مفهوم مجال أسا والصحراء حتى بلاد شنقيط في عرف المخزن من خلال مؤسساته العسكرية والإدارية، ينم عن وحدة الإطار الجغرافي والطبيعي والسياسي لحدود المغرب. لهذا فهو حجة قاطعة على من يزعم أن بلاد الصحراء انطلقا من بوابتها الشمالية حتى الصحراء الكبرى، خلاء لم تنله أحكام سلطة سياسية ولا حكم إدارة مركزية ولا من يمثلهم سواء من الناحية الشرعية أو السياسية.

والصواب أن حضور مفهوم المجال في عرف المخزن يوازيه وبشكل قوي حضور ممثليه في كل ناحية. بل أن الأطراف النائية من الصحراء هي التي ظلت تطلب المشورة والإفتاء من المخزن في شخص السلطان بخصوص تسيير أمورها وما استجد عندها من نوازل ووقائع. فقبائل "البيضان" الصحراوية، تعترف دوما بالسلطة الدينية لسلطان المغرب، بالرغم من أنها لا تعتبر نفسها أتباعا سياسيين له¹. لذلك نجد أن العديد من المراسلات قد تمت بين السلطان والزعامات الدينية والقبلية والأعيان بمجال سوس الأقصى والصحراء، وهو ما يركي حضور مفهوم المجال المغربي في عرف المخزن بما فيه الأطراف النائية². لكن الإشكال يتمحور حول مدى استيعاب القبائل ومن يمثلها من الأعيان والشيوخ مفهوم المخزن من جهة، ومدى استيعابه عند ممثلي المخزن أنفسهم وعلى رأسهم القواد من جهة أخرى.

¹ د. محمّد بن محمّد، وثائق من التاريخ الموريتاني، نصوص فرنسية غير منشورة، ترجمة وتحقيق وتعليق، تقديم د. عبدالودود ولد الشيخ، منشورات جامعة نواكشوط، الطبعة الأولى 2000، 201.

² ظهير السلطان المولى عبدالرحمان بن هشام إلى قبيلة مجاط بتاريخ 13 شوال الأبرك عام 1244هـ. المصدر: م. و. م. ر. محفظة عدد: A 15-003.

- ظهير السلطان المولى الحسن الأول ولي بمقتضاه الفقيه محمد بن فضل ماء العينين نائبا عنه في الأقاليم الصحراوية بتاريخ 12 ربيع الثاني 1296هـ. المصدر: م. و. م. ر. محفظة عدد: A 17-019.

- ظهير السلطان المولى الحسن الأول بتاريخ 24 شعبان 1303هـ. عين بمقتضاه الطالب أحمد بن محمد الأعمش الجكاني قاضيا على قبيلة تجكانت. ويعتبر هذا الظهير إخضاع هذه المنطقة الصحراوية لخطة القضاء وعملها بالسلطة التشريعية كسائر مناطق المغرب.

3- الحضور المخزني بمجال أسا: جذوره وأشكاله

إن دراسة تاريخ العلاقات بين السلطة المركزية والمجال قيد الدراسة تعترضه إشكالات جوهرية نابعة أساسا من طبيعة المجال ومكوناته القبلية، وغير مرتبطة بالأساس بالمخزن نفسه أو طبيعة حضوره بالمنطقة وتسيير أمورهما من خلال تمثليه. فالبنية القبلية لمجال أسا تتوزع بين المستقرين في قصور الواحات وبين القبائل الرحل التي يُطلق عليها في الوثائق المحلية تسمية "أيت أوسى". على هذا الأساس، هل نحن بصدد دراسة علاقة السلطة المركزية بالمجال في الفترة ما بين 1830 و1934م؟ أم أننا بصدد رصد تاريخ العلاقات بين هذه السلطة والقبائل، على اعتبار أنها تتوزع بين المستقرين والرحل؟

فانطلاقا من مختلف المظان حول هذا الموضوع، فإن خطاب المخزن المغربي كان موجها أساسا إلى قبائل أيت أوسى الرحل دون القبائل المستقرة بالمجال. ولهذا التوجه مبرران أساسيين ووجيهان في نظرنا: أولهما، كون قبائل أيت أوسى الرحل كانت تتمتع بقوة حربية تستطيع من خلالها قلب توازنات الأحلاف داخل المكونات القبلية لمجال تكنة. كما أن هذه القبائل يمكن أن تتحالف مع قبائل أخرى خارج مجال تكنة ضد مصالحها. كما أن هذه القبائل ذات الشوكة الحربية يمكن لها أن تتحالف فيما بينها ضد توجهات المخزن وسياسته بالمنطقة. كما أنها يمكن أن تتعاون مع الأجانب، وهو ما قد يشكل تهديدا حقيقيا لهيئة المخزن ومساسا بوحده واستمراريته بالمجال. و من شأن هذا التذبذب في العلاقات الحربية والسياسية، أن تثير حفيظة المخزن كما جاء في مختلف الوثائق التي وُجّهت إلى القائد ولد بيروك والقائد محمد بن الحسين أو هاشم بهذا الشأن¹.

¹ رسالة السلطان المولى الحسن الأول إلى القائد محمد بن الحسين أو هاشم بتاريخ 21 ذو القعدة عام 1306هـ/1889م، بشأن تعامل القبائل الصحراوية مع النصارى بمرسى طرفاية.

كما أن الدسائس الأجنبية على ساحل وادي نون شكلت حافزا لدفع المخزن إلى التفكير بحزم في تعزيز سلطته في أقصى جنوب البلاد¹. وهذا الأمر دفع السلطان المولى الحسن الأول إلى تعيين القواد على مختلف القبائل تنفيذاً لهذه الاستراتيجية في التعامل مع القبائل لصد التدخلات الأجنبية بالمجال. لكن مادامت مختلف القوى المحلية بالمجال تؤدي الواجبات، وتسهم في الهدايا وتطبق القرارات، فإن السلطة المركزية كانت تتعامل معها بنوع من المهادنة والليونة، نظراً للظرفية التي كان يمر بها المغرب في علاقته مع الدول الأوروبية². ثانيهما، كون قبائل أيت أوسى الرحل تتمتع بقوة اقتصادية لا يُستهان بها، والمتمثلة في الثروة الحيوانية من الإبل والغنم والماعز، وهو ما يشكل دخلاً هاماً من مداخيل الفروض والكلف المخزنية التي كانت تُفرض على مختلف قبائل تكنة ومن ضمنها قبائل أيت أوسى الرحل. وفي المقابل، فإن القبائل المستقرة بمجال أسا لا تتمتع بالمقومات نفسها اقتصادياً وحرية. لهذا، فإن اقتصادها المعاشي لا يكاد يستجيب حتى لحاجيات السكان سيما في فترات الجفاف والأوبئة. لذلك نجد أن المخزن قد أسقط عنها كل الكلف إما اعتباراً لهذا الأمر، أو لكون قبائل أيت أوسى الرحل أكثر حضوراً في المجال بفعل العوامل التي ذكرت سابقاً. وبالرغم من استعمال المخزن لعبارات "بني أسا" و"أيت أسا" وآل أسا" في مختلف المراسلات، فإن المعنى والمقصود بها أساساً هي قبائل أيت أوسى الرحل ومن ضمنها القبائل المستقرة بواحات مجال أسا. ومما يعزز هذا الاستنتاج كون

¹ دانييل شروتير، تجار الصويرة، المجمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب (1844-1886)، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة 6، الرباط 1997، 349-351.

² محمد زرهوني، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر (1863/1280-1873/1290)، جامعة الحسن الثاني-عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل: 5، مطبعة فضالة المحمدية، الطبعة الأولى 1998، 161.

جميع القواد الذين تم تعيينهم خصوصا في فترة المولى الحسن الأول ينتمون كلهم إلى فروع قبائل أيت أوسى الرحل وليس إلى القبائل المستقرة بالقصور. ومما نستنتجه أيضا من هذا التوجه، أن المخزن المغربي في تلك الفترة (1830-1934م) كان يتعامل مع القوى والقبائل المحلية الأكثر بروزا ونفوذا على الصعيد السياسي والحربي وعلى الصعيد الاقتصادي. فما هي جذور العلاقة بين المخزن وقبائل أيت أوسى؟

إن تاريخ العلاقات بين المخزن المغربي وبلاد تكتة عموما لم يكن وليد فترة القرن 19م، وإنما هو متجذر في الماضي منذ قيام الدول بالمغرب. وحصيلة هذه العلاقات خلال القرن 19م لم تكن سوى نتائج سيرورة تاريخية تبلورت في شكلها الجديد والمرتبطة أساسا بالنضج السياسي وبعده النظر سواء لدى القبائل أو المخزن على حد سواء. كما أن هذه العلاقات تحكمت فيها ظروف ومستجدات مجال الجنوب المغربي خلال القرن 19م، مما أعطاها بُعدا سياسيا أكثر مما هو اقتصادي أو اجتماعي أو ديني.

ومن نتائج هذا التراكم أن تبلورت سياسة السلطان المولى الحسن الأول في شكلها الذي عرفته سواء خلال ولايته للعهد بمراكش أو أثناء توليته سلطانا. ومن نتائج هذا التقارب أيضا أنه ولأول مرة في تاريخ المغرب تطأ أقدام السلطان بلاد تكتة، وهي إشارة إلى أن قبائل هذا المجال كانت تناصر السلطة المركزية في شخص السلطان بالرغم من محاولات زعاماتها المحلية خلق علاقات تجارية مع الأجانب كالإسبان والإنجليز¹.

وكان من بين أهداف الحركة الثانية للسلطان المولى الحسن الأول إلى سوس هو إخضاع مختلف قبائل المنطقة لسلطة المخزن من خلال إعطاء الأسبقية لإعادة تقسيم

¹ ISMAEL Hanet, (Direction de l'Institut des Hautes Études Marocaines, Histoire du Maghreb), La France en Algérie, Cours Professé à l'Institut des Hautes Études Marocaines. Éditions ERNEST LEROUX. Paris 1923. PP.123-124.

إداري جديد للمنطقة، والذي كان يهدف من خلاله إلى إضعاف القبائل عن طريق تفكيك وحدتها، وتقسيمها إلى مناطق نفوذ بين عدد هائل من القواد والعمال، وخاصة منها القبائل الخاضعة "الذين رجعوا إلى الطاعة، وتلقوه (أي السلطان) على العادة أفواجا أفواجا ناشرين أعلام الفرخ (..) مقدمين بين أيديهم هداياهم، ممترسين بأبنائهم وإخوانهم وسراياهم، ماديين أعناق الامتثال، عاضين بالنواجذ على الخدمة وصالح الأعمال"¹. ومن ثم جاء تعيين عدد من القواد على رأس قبائل أيت أوسى اثناء هذه الحركة إلى مجال وادي نون. وبناء على هذا فجدور العلاقات بين الطرفين متشعبة ومتداخلة شملت كل المجالات والأزمات. لهذا يجد الباحث نفسه مرغما على الخروج من الإطار الزمني والمكاني المخصصين للبحث من أجل التأريخ لعلاقة المخزن بقبائل أيت أوسى ومجالها لكونها كانت تُدمج - ولروح من الزمن- ضمن قبائل ومجال تكنة. فنجد أن مختلف الرسائل الموجهة من المخزن إلى ممثليه سواء في الحوز أو في سوس أو بلاد تكنة كان يطبعها التعميم فيما يخص قبائل تكنة دون ذكر لفروع تلك القبائل بحسب الوقائع التي وردت في تلك الرسائل المخزنية².

¹ المشرفي، "الخلل البيبة"، ص.760. نقلا عن: محمد أمنصور، البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن، لمحمد بن ابراهيم السباعي المتوفى 1332هـ/1914م، تقديم وتحقيق، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، الجزء الأول، تحت إشراف د. محمد الأمين البزاز، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 2002/2001. (مرقونة). 245-246.

² رسالة السلطان المولى عبدالرحمان بن هشام إلى الأمين الحاج أحمد بشأن حجاج قبيلة تكنة، بتاريخ 12 شعبان الأبرك عام 1261هـ. المصدر: م. و. م. ر. سجل رقم 33053. 12610812-008-021-15 A :Cote.

- ظهير السلطان المولى الحسن الأول ولى بمقتضاه الفقيه محمد بن فاضل ماء العينين نائبا عنه في الأقاليم الصحراوية. بتاريخ 12 ربيع الثاني 1296هـ/5 أبريل 1879م. المصدر: م. و. م. ر. محفظة رقم: 09-17 A :Cote.

- ظهير السلطان المولى الحسن الأول ولى بمقتضاه عبدالرحمان التكني قائدا على أيت الجمل بتاريخ 1 رمضان 1299هـ/17 يوليوز 1882م.

- ظهير السلطان المولى الحسن الأول سدل به أردية التوقير والاحترام على محمد بن أحمد الكوري التكني وإدماجه في الركب السلطاني. بتاريخ 21 شعبان 1303هـ/25 مايو 1886م.

وانطلاقاً من مختلف هذه المقاربات يمكن تجسيد علاقة المخزن المغربي بمجال أسا وقبائله في ثلاثة أوجه رئيسية: وهي تعيين القواد من داخل قبائل أيت أوسى. وإصدار ظهائر التوقير والاحترام لفائد قبائل المجال والزوايا. وأخيراً الكلف المخزنية التي كانت تُفرض على القبائل سواء بمجال الاستقرار أو الانتجاع.

4- أوجه العلاقة بين المخزن ومجال أسا: 1830-1934م

أ- تعيين القواد

لم تعرف قبائل أيت أوسى الرحل هذا النوع من الزعامات إلا في فترة السلطان المولى الحسن الأول. فقد قام هذا الأخير أثناء حركته إلى سوس ومنها إلى وادي نون

-
- ظهر السلطان المولى الحسن الأول سمي به يوسف بن علي الزفطي قائدا على فرقة الزوافيط من قبيلة تكنة. بتاريخ 22 شعبان 1303هـ/26 مايو 1886م.
 - ظهر السلطان المولى الحسن الأول سدل به أردية التوقير والاحترام على قاضي ألكمير علي بن البخاري. بتاريخ 23 شعبان 1303هـ/27 مايو 1886م.
 - رسالة السلطان المولى الحسن الأول إلى القائد دحان بن بيروك التكني بشأن بقاء أيت الجمل بالحوز. بتاريخ 2 شعبان 1303هـ. المصدر: م. و. م. ر. محفظة رقم: Cote : A 17-094-007-13030802.
 - ظهر السلطان المولى عبدالعزيز عين بمقتضاه القائد أحمد بن يوسف الزركي التكني ناظرا على قواد قبائل إزركيين. بتاريخ 7 شعبان 1319هـ/19-11-1901م. المصدر: م. و. م. ر. محفظة رقم: Cote : A 18-78.
 - ظهر السلطان مولاي عبدالحفيظ ولي بمقتضاه دحان بن بيروك التكني قائدا على أيت لحسن وأيت موسى وعلي ويكوت وإزركيين من قبائل تكنة. بتاريخ 21 شعبان 1325هـ/29 شتنبر 1907م.
 - ظهر السلطان مولاي عبدالحفيظ يحدد به ما بأيدي أيت لحسن من ظهائر التوقير والاحترام. بتاريخ 1 رمضان 1325هـ/8 أكتوبر 1907م.
 - ظهر السلطان المولى عبدالحفيظ ولي بمقتضاه إبراهيم الخليل بن الحبيب بن بيروك الوادونوني واليا على عدد من القبائل الصحراوية. بتاريخ 14 ربيع الثاني 1327هـ/5 ماي 1909م.
 - رسالة من العامل حمزة بن هبة إلى السلطان المولى عبد العزيز بتاريخ 11 الحرام عام 1312هـ، يخبره بوقوع معركة بين أولاد الدليم وتكنة بحوز مراکش. محفظة رقم 24. الوثيقة رقم 3553. السجل رقم 5192 (م. و. م. ر.).

بتعيين عدد من القواد يمثلون بعضا من فروع قبائل أيت أوسى. ورُوعي في هذا التعيين انقسام أيت أوسى إلى لفين رئيسيين هما: لف إداومليل (أيت أوسى الساحل) ولف إداونكيت (أيت أوسى الشرگ). وكان على رأس هؤلاء القياذ الذين تم تعيينهم من طرف المولى الحسن الأول القائد محمد بن أحمد شياهو من فرع أيت وعبان الذي ينتمي إلى لف إداومليل¹. ومن المعلوم أن هذا الفرع كان يتزعم ولفترة طويلة مجلس أيت ريعين لقبيلة أيت أوسى، وتحديدًا من فخذة أهل لكثيف. ويفهم من هذا التعيين استمرار الزعامات القبيلة في نقل المناصب على رأس القبيلة وتزكية المخزن لهذا التوجه. وقد لقي القائد محمد بن أحمد شياهو حتفه بتارودانت عام 1912م، عقب المعارك التي دارت بين جيوش أحمد الهيبة وجيوش القائد حيدا أمويس الموالية للسلطان. أما القائد الثاني الذي عينه المولى الحسن الأول ومن اللف نفسه، هو القائد محمد ولد الخرشى من فخذة أيت بوجمة. والقائد الثالث هو امبارك ولد بونعمة، والقائد الرابع هو فرح ولد بومهدي وكلاهما من فرع إداوتيا. أما في لف إداونكيت (أيت أوسى الشرگ) فقد عين السلطان المولى الحسن الأول² القائد بوزيد ولد الرباني ولد حمدي ولد ويسى من إداومستر (أهل حمو أوعلي) ويكون قد رُوعي أيضا في هذا التنصيب حجم اللفين من حيث عدد فروعها وعدد الكوامين وكذا المقومات الاقتصادية والحربية لكل لف. ويلاحظ من خلال هذه التعيينات خلو الزعامات المحلية لقبائل القصور من هذه الامتيازات. وبذلك يكون منصب القائد شكلا من أشكال التواصل بين المخزن المغربي وقبائل أيت أوسى على الأقل في فترة السلطان المولى الحسن الأول وما بعدها. لكون القيادة ستستمر في العائلات نفسها في فترة كل من السلطانين المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ وما بعدهما، أي إلى حدود استقلال المغرب.

¹ محمد أمنصور، م. س. 247.

² Paul MARTY, Les Tribus de la Haute Mauritanie, Publication du Comité de l'Afrique Française, Paris 1915. P 69.

وبالرغم من تعيين القواد الأيتوسيين على رأس قبائلهم، فإن هذه الزعامات السياسية الجديدة ظلت حبيسة التنظيمات القبلية التقليدية، والمبنية أساسا على الصراعات القبلية، سواء لتثبيت حدود القبائل أو الحصول على المراعي أو تقط الماء. وتعتبر هذه البنية السياسية امتدادا لتاريخ قبائل أيت أوسى قبل نزوحها النهائي من الصحراء الكبرى، واستقرارها مبدئيا بمجال وادي نون. وقد تنبه المخزن المغربي إلى ما آلت إليه أوضاع القبائل في الجنوب المغربي، سيما بمجال وادي نون والصحراء، من خلال انخراط القواد الذين تم تعيينهم في الصراعات القبلية، عوض تنفيذ سياسة المخزن الميالة إلى المهادنة والتهدئة في مجال يتعرض لتحرشات الدول الأجنبية.

كثرت مراسلات السلطان المولى الحسن الأول إلى قواد تكنة من جهة، ومراسلات دار بيروك ودار إيلينغ إلى السلطان من جهة أخرى، بشأن ما يقوم به قواد قبائل تكنة من انخراطهم في صراعات داخلية، ومناوشات حربية بين مختلف المكونات القبلية بمجال وادي نون والصحراء ومجال سوس. ونفهم من خلال هذه المراسلات المخزنية اهتمام السلطان بشكل فعلي ومباشر بشؤون القبائل وأوضاعها بالجنوب المغربي لما لذلك من تأثير على هبة الدولة في ظرفية اتسمت بمحاولات الأجانب استمالة مختلف القبائل بالمجال من أجل الوقوف معها لتمكن من تنفيذ سياستها الرامية إما لاحتلال مجال الجنوب المغربي، أو لتنفيذ مخططات اقتصادية به. وتشخص هذه الوثائق المخزنية إلى حد كبير البنية السياسية التي كانت عليها مختلف القبائل بالجنوب المغربي إلى حدود فرض الاحتلال الفرنسي سنة 1934م.

لم يكن قواد أيت أوسى في منأى من هذه الصراعات القبلية بالرغم من خضوعهم لسلطة المخزن المركزي على الأقل في أداء ما توجب عليهم من الكلف والفروض المخزنية. ففي رسالة من السلطان المولى الحسن الأول، نجد أنه قد حذر فيها القائد محمد بن أحمد اشياهو الأيتوسي، والقائد محمد بن مولود ذنبية الأحمدي، والقائد لحسن بن عليات

الصبوي من التادي في الصراعات القبلية مع باقي قواد مجال وادي نون¹. وكانت دار إيليج تنقل الوقائع بين مختلف قبائل تكنة إلى علم المخزن المغربي، وهو ما نجده في العديد من الرسائل المتبادلة بين السلطان المولى الحسن الأول والقائد محمد بن الحسين أوهاشم زعيم دار إيليج². كما كشفت بعض الوثائق المخزنية، أن المخزن المركزي نفسه يتدخل في توجيه مجريات الأحداث لصالح لف أو قبائل أو قبيلة محددة من خلال ممثليه النافذين بالمجال: "خدمنا القائد محمد زروال التكني وبعد، فنأمرك أن تشد عضد الخدام الحبيب ويوسف الزفطيين ومحمد الأسي على إخوانهم والسلام³. في 29 من ربيع الثاني عام 1304"⁴. إن مهام قواد أيت أوسى وقواد مجال وادي نون بصفة عامة إذن تذبذبت بين الولاء التام للسلطة المخزنية وتنفيذ سياسته بالمنطقة، وبين الولاء للقبيلة التي لازالت تتحكم فيها النظم القبلية العتيقة المبنية على العصبية والحمية، وهو ما أدخل قبائل تكنة في صراعات دموية طيلة القرن 19م.

ب- ظواهر التوقير والاحترام

شكلت ظواهر التوقير والاحترام الصادرة من السلاطين إلى الأشخاص أو القبائل شكلا من أشكال الاتصال بين السلطة المركزية وهذه القبائل. غير أن هذه الامتيازات التي يقدمها المخزن لهذه القبائل تكون مشروطة بشروط يتضمنها ظهير التوقير

¹ رسالة السلطان المولى الحسن الأول إلى القائد محمد بن أحمد اشياهو وبعض قواد تكنة، بتاريخ 6 جمادى الأولى 1306هـ/1887م.

² رسالة السلطان المولى الحسن الأول إلى القائد محمد بن الحسين أوهاشم بالريخ 18 ربيع الثاني عام 1307هـ/1890م. المصدر: خزانة دار إيليج 2، فرع إنزكان.

- ومنه إلى نفس القائد في نفس الموضوع، بتاريخ 27 ربيع الثاني عام 1308هـ/1891م. المصدر: نفسه.

³ المقصود القائد محمد ولد أحمد بن اشياهو الأيتوسي.

⁴ رسالة السلطان المولى الحسن الأول إلى القائد محمد زروال التكني بتاريخ 29 ربيع الثاني 1304هـ/25 يناير 1887م. المصدر: م. و. م. ر. ملف عدد: 130400329 Cote A 17-096.

والاحترام، أو أن هذه الشروط تُفهم من سياق العلاقة بين الطرفين دون ذكر لها في العقد. إلا أن مختلف الأحداث التي شهدتها مجال تكنة وبلاد الصحراء في فترة السلطان المولى الحسن الأول وبداية القرن العشرين أدخلت بشروط تلك الظواهر في مجملها. كما أخل ممثلو المخزن، وهم القياد، بسياسة المخزن اتجاه مختلف الأحداث السياسية بالجنوب المغربي. فقد انخرطت مختلف قبائل أيت أوسى التي شملتها تلك الظواهر السلطانية في الصراعات القبلية وحملت السلاح، بل أكثر من ذلك أنها وقفت في فترة من الفترات في وجه سياسة المخزن في المنطقة بحسب ما جاء في بعض الوثائق المخزنية من تعامل القبائل مع الأجانب والقبائل الخارجة عن الطاعة.

وانطلاقاً من مختلف الأحداث التي شهدتها الجنوب المغربي خلال فترة القرن التاسع عشر، فإن بعض الكتابات الأجنبية نعتت ووصفت قبائل تكنة ومجالها الجغرافي بأنها غير خاضعة للأحكام السلطانية. والواقع أن وجهها من وجوه العلاقة بين هذه الأطراف والسلطة المركزية ظل قائماً منذ قيام الدول بالمغرب. يتعلق الأمر هنا بتلك العلاقة الروحية الدينية بين السلطان باعتباره ولياً على أمور المسلمين بالمغرب وبين الرعية والمتمثلة هنا في قبائل تكنة. لهذا ظلت المنابر والخطب الدينية الخيط الرابط بين الطرفين أي بين السلطان وقبائل تكنة¹، بالرغم من التذبذبات التي كانت تعرفها تلك العلاقات سيما في فترة السلطان المولى الحسن الأول بفعل التأثيرات الأجنبية.

وانطلاقاً من هذا المنطلق الديني الروحي، استفادت بعض القبائل التي تقطن مجال أسا، وعلى رأسها قبيلة التركز (قبيلة زاوية أو زوايا) من ظهور للتوقير والاحترام

¹ Congrès de l'Afrique du Nord, Tenu à Paris du 6 au 10 Octobre 1908. Compte Rendu des travaux. Publié par : M. Ch. DEPINCE, Chef de Service à l'Union Coloniale Française, Secrétaire Général du Congrès. Tome II, Questions Indigènes (Enseignement. -Justice. -Institutions Religieuses. -Conditions de Vie Matérielle.) Maroc (Questions Politiques et Economiques) Paris 1909. P.880.

من السلطان المولى الحسن الأول: "هذه السطور الشريفة ذات الظلال الوريقة الساطعة الأنوار، النافذة الحكم بإذن الله في الأنجاد والأغوار، بيد مسكتها أهل زوايا تركز من قبائل تكنة. ويتعرف منها أنا بأيد الله وحواله رفعنا ودفننا عنهم الأيدي العادية دفعا، وأمرنا بتوقيرهم واحترامهم وتعظيمهم وإكرامهم، بحيث لا يظلمون ولا يهضمون، ما داموا إلى الخير والصلاح والفضل ينتمون. لكن بشرط تحليمهم بسماة الفضائل وتحليمهم عن سفاسف الرذائل، وتسربلهم أردية المسكنة والصلاح، والسعي في الخير والجد والدؤوب على سمت المروءة والهدنة في الآصال والغدو والرواح، والخروج من زمرة العوام وعدم حمل السلاح. نأمر الواقف عليه من كافة عمالنا وولادة أوامرنا العالية بالله بإعماله، وتنفيذ مقتضاه الشريف وعدم إهماله والوقوف عند حده وكماله والسلام. صدر به أمرنا المعتر بالله ثالث عشري شعبان الأبرك من شهور عام ثلاثة وثلاثة عشر مائة¹".

كما استفاد سكان زاوية أسا من ظهير للتوقير والاحترام وإسقاط للكلف المخزنية من نفس السلطان. ويبدو من خلال نص هذا الظهير أن المقصود هم سكان القصور دون قبائل أيت أوسى الرحل على اعتبار أنها كانت تُفرض عليها مختلف الكلف المخزنية: "جددنا بأيد الله وحواله وعونه وطوله، لمسكنته وصفاننا سكان زاوية أسى حكم ما بأيديهم من ظهائر سلفنا المقدسين برد الله مراقدهم وجعل في مقاعد الصدق مقاعدهم، المتضمنة للتحرير والتوقير وعدم التكليف بقتيل أو نقيير وأذنا لهم في تفريق زكواتهم وأعشارهم على ضعفاءهم ومن استحقتها من فقراءهم. وعليهم بتقوى الله تعالى ومراقبته. فنأمر الواقف عليه من كافة عمالنا وسائر ولاتنا بإعماله وإمضائه. والوقوف عند انتهائه. والسلام. صدر به أمرنا المعتر بالله في فاتح رمضان المعظم سنة ثلاث وثلاثمائة وألف²".

¹ ظهير السلطان المولى الحسن الأول سدل به أردية التوقير والاحترام على أهل زاوية التركز بتاريخ 23 شعبان 1303هـ/27 مايو 1886م. المصدر: م. و. م. ر. محفظة رقم/17-013-18860527. Cote : A

² ظهير السلطان المولى الحسن الأول إلى سكان زاوية أسا بتاريخ 1 رمضان 1303هـ/1886م. المصدر: م. و. م. ر. محفظة رقم: A 17-013. Cote

ويستفاد انطلاقاً من نص الظهيرين أن قبيلة التركز تتمتع ولأول مرة بظهير توقيير واحترام من أحد السلاطين المغاربة. وقد أتى هذا الأمر بعد دخول هذه القبيلة إلى صفوف قبائل تكنة واستقرارها بمجال واحات أسا (عويينة التركز) بعد نزوحهم النهائي من منطقة لبطانة بمجال الصحراء. كما أن هذا الظهير يأتي بعد تأسيسهم لزاوية لهم في المجال ذاته، وهي زاوية سيدي دغمّني، والتي جعلوها محجا وقبلة لكل القبائل التي تنحدر من جدّهم عبد الرحمن الركاكز بن أبي بكر بن عبد الله بن سيدي جعفر بن سيدي محمد بن عبد الرحمان¹. أما عن سكان زاوية أسا، فيفهم من الظهير السابق الذكر أن هذه القبائل كانت قد تمتعت واستفادت من ظهائر سابقة لفترة السلطان المولى الحسن الأول. والشاهد عندنا هو عبارة: "جددنا بأيد الله وحوله وعونه وطوله، لمسكته وصفاننا سكان زاوية أسى حكم ما بأيديهم من ظهائر سلفنا المقدسين". الأمر الثاني، أن قبائل زاوية أسا أسقطت عليها كل الكلف المخزنية بحسب نص الظهير نفسه، بينما تمتعت زاوية قبيلة التركز بالتوقيير والاحترام فقط. ويرجع السبب في ذلك كون قبائل التركز، قبائل رحل وتتمتع بنفوذ اقتصادي كبير والمتمثل في الثروة الحيوانية. لهذا لم يتم إسقاط الكلف عنها كما هو الشأن بالنسبة لزاوية أسا. لكن الإشكال يتجلى في هذا التمييز في إسقاط الكلف وإقرارها من المخزن داخل المكون القبلي الواحد وداخل المجال الواحد؟ فما هي أهم الظروف والعوامل المتحكمة في ذلك؟

ت- الكلف المخزنية

شكلت الكلف والفروض المخزنية شكلاً من أشكال التواصل والعلاقة بين المخزن المركزي المغربي ومجال واحات أسا، وبينه وبين قبائل أيت أوسى الرحل. فإداء القبائل

¹ الشيخ موسى كرا (ت.1945م)، تاريخ قبائل البيضان عرب الصحراء الكبرى، تحقيق الدكتور حماد الله ولد السلام، قسم التاريخ - كلية الآداب جامعة نواكشوط (موريتانيا)، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2009، 130.

للكلف المخزنية يعني أنها صارت من قبائل الطاعة بغض النظر عن نمط عيشها، إن كانت قبائل مستقرة أو قبائل تمارس الترحال. لكن إسقاط الكلف المخزنية على مجال جغرافي معين أو زاوية من الزوايا لا يعني بالضرورة خروجها عن طاعة السلطان، ومن تم نعتها على أنها "بلاد سائبة".

فهناك اختلافات بين بلاد السبية وبلاد المخزن، فرضتها الظروف الطبيعية والمناخية لكل مجال. فبلاد السبية يقترن بالمجالات الفقيرة من الناحية الزراعية والمائية، مما يجعل المخزن المركزي لا يوليها عناية كبيرة، خصوصا في استخلاص الضرائب ودفع الكلف المخزنية. والمثال عندنا هو حال مجال واحات أسا ذات الاقتصاد المعاشي المحدود، والتي أسقطت عن سكانه المستقرين بالمجال، جميع الكلف وتمتعهم بظهير للتحرير والتوقير وعدم التكليف بفيتيل أو نكير. وهذه المجالات تقترن دوماً بالقبائل الأمازيغية، في حين تقترن المجالات الخصبية بالقبائل العربية وهو ما يجعلها دوماً تحت رحمة المخزن سواء في تمويل الحركات المخزنية أو مختلف الكلف التي تُفرض عليها.

من هذا المنطلق فإن العوامل الجغرافية والمناخية هي التي تتحكم في تقسيم المجالات الجغرافية بالمغرب إلى "بلاد المخزن" و"بلاد السبية" بالدرجة الأولى، مع وجود بعض الاستثناءات، حيث لا يمكن تعميم هذه النظرية على تاريخ المغرب بشكل عام¹. وانطلاقاً من هذه الاستنتاجات يمكن القول إن المخزن كان على دراية تامة بأحوال القبائل وبنياتها ومقوماتها الاقتصادية سواء في الجبل أو السهل أو في الصحراء. كما أن المجالات الجغرافية المغربية على اختلافها كانت معلومة لدى المخزن بمكوناتها الطبيعية ومؤهلاتها الاقتصادية. ومن ثم فإن السلطة المركزية تفصل بين القبائل أو المجالات الجغرافية التي تُفرض عليها الكلف والقبائل التي تُسقط عنها، وقد تُفرض على القبائل دون المجال كما هو الشأن لقبائل أيت أوسى الرحل.

¹ Augustin BERNARD et Paul MOUSSARD, Arabophones et Berbérophones au Maroc. In : Annales de Géographie. T 33. N° 183. Paris 1924. P.271.

ظل المخزن المغربي حاضرا بمجال وادي نون والصحراء، وبأشكال مختلفة، منذ ما قبل فترة السلطان المولى الحسن الأول. ونذكر في هذا الصدد وصول محلة السلطان أحمد المنصور الذهبي إلى تكاوست (لقصايي حاليا) بوادي نون حوالي عام 1580م¹. وقد أسهمت القبائل التي تقطن المجال في تمويل تلك الحملة بحسب مصادر تلك الفترة ومنها "بعمرانة والتكنة والعرب جملة إلى واد نون... بثلاثين ألفا"².

لكن العلاقة بين السلطة المركزية وقبائل وادي نون ظلت تحت رحمة تقلبات الأحوال الطبيعية والسياسية وظروفها منذ فترة مبكرة. فاختلاف الظروف السياسية من ولاية سلطان لآخر، وتوالي سنوات القحط شكلا عاملين أساسيين في تدبب العلاقة بين المركز والقبائل التي توجد عموما في أقصى بلاد السوس والصحراء³. ورغم ذلك ظل المخزن المغربي يفرض على قبائل أيت أوسى الكلف بالرغم من تبدل الظروف السياسية، والمتمثلة أساسا في ظهور الاضطرابات بعد وفاة المنصور الذهبي وتزايد الضرائب غير الشرعية على القبائل⁴.

وفي فترة تولي المولى إسماعيل زمام الأمور في المغرب في الفترة العلوية، فإن قبائل أيت أوسى كانت مجبرة على تحمل تبعات الصراع على الحكم بين الملك الجديد وأبنائه.

¹ ابراهيم بن علي الحساني، ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر أفا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، 1989. 28 و 63 و 37.

² نفسه. ص. 29. ويقصد بالعدد "ثلاثين ألفا" عدد المراقبين للمحلة السلطانية عام 988هـ/1580م بوادي نون.

³ Rachid AGROUR, Le Mouvement Hibiste et les Tribus Berbères de L'Anti-Atlas un Histoire de la Périphérie (Sud-Ouest Marocain) Face au Pouvoir Central (1910-1934), Université PARIS I, Panthéon Sorbonne 2009, P.8.

⁴ محمد مزين، فاس وباديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549م-1637م، الجزء الثاني، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 12، الطبعة الأولى 1406-489، 1986.

فقد قام المولى محمد بن المولى إسماعيل -الملقب بالعالم-، بالثورة على أبيه انطلاقاً من تارودانت وذلك سنة 1114هـ/1702م، في إطار الصراع على السلطة بين السلطان وأولاده¹. ولتمويل حملته وجه الثائر محمد العالم رسالة إلى قبائل أيت أوسى يدعوهم فيها إلى دفع ما فرض عليهم من المغارم والمعونة: "بسم الله الرحمن الرحيم. وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. من عبد الله تعالى أمير المؤمنين الناصر لدين الله محمد إسماعيل إلى كافة أيت أسا، بعد السلام فنأمركم أن تعزموا برفع عشرة من الإبل جيدة صحيحة [...] ومائتي شاة ثنتي وستين صاعاً من الشعير من زكاتكم وإن تراخيتم بذلك لحظة واحدة ينتقم الله منكم، وقد رفقنا بكم في ذلك والإفانكم تقدرتون على إعطاء أكثر مما ذكرناه لكم والسلام. وفي السادس والعشرين من المحرم عام ستة عشر ومائة وألف"².

واستمر مجال وادي نون يدفع الكلف والأعشار للسلطة المركزية سواء بطريقة مباشرة أو من خلال ممثلي المخزن بسوس إلى حدود سنة فرض الحماية على المغرب. وشملت هذه الفروض حتى الزعامات السياسية والقبلية باستثناء ما استثنتهم الظهائر السلطانية من دفع تلك الواجبات. فنجد في إحدى السجلات الموجهة إلى المخزن المركزي بشأن خرص حبوب زرع قبيلة تكنة من الشعير والقمح والبول، أن القائد دحمان ولد بيروك قد دفع 12 غرارة من القمح الذكر و8 من الفول³. كما خضع مجال تكنة وقبائله

¹ محمد زرهوني، العلاقات بين السلطة والسكان، 103.

- د. ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراتها في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الحاضر، الجزء الثالث: من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، طبعة 1430-2009. 36.

² رسالة بتاريخ 26 محرم عام 1116 الموافق لـ 1705م. المصدر: م. و. م. ر. ملف عدد: Cote 11160126- A 04-004-001.

³ الخزانة الحسينية الرباط. الكناش رقم 137. سجل خرص زرع قبائل تكنة لموسمي 1309 و1310هـ على التوالي، موجه إلى المخزن المركزي بتاريخ 12 محرم الحرام عام 1310هـ/1892م.

للترتيب العزيزي وفق ما جاء في رسالة وجهها السلطان المولى عبدالعزيز إلى القائد محمد الأمين الوادونوني شرح فيها تعليماته بشأن الترتيب على القبائل التي تحت نظره وكيفية تحصيل ذلك¹. إلا أن قبائل وادي نون لم تكن مستقرة على حال في علاقتها مع المخزن المغربي في شخص ممثليه بالمجال. فكثيرا ما تنتفض تلك القبائل وتمتنع عن أداء وظيفة الترتيب جراء ما يلحقها من جور وتعسف من جهة ممثلي المخزن عن طريق فرض المزيد من الفروض والذعائر غير الشرعية والقانونية عليهم. ويشكل هذا الأمر حاجزا جديا أمام إشعاع السلطة المركزية وتجذرها في مثل هذه المناطق النائية. لذلك، فإن مختلف المظان والمراسلات المخزنية تؤكد أن القبائل العربية المعقلية والقبائل الصحراوية وغيرها تنتفض ضد عمال المخزن وليس المخزن بذاته في شخص السلطان²، الأمر نفسه تحدث عنه الكتابات الأجنبية ولكن في سياق آخر³.

وظل الحضور المخزني قائما في أوساط قبائل أيت أوسى الرحل ومجال أسا طيلة الفترة العلوية، وإن كان هذا الحضور يبرز ويخفت بحسب الظروف التي كان يمر بها المغرب. كما أن قبائل أيت أوسى كانت حاضرة في مختلف الوقائع والصراعات السياسية التي شهدتها الجنوب المغربي، بدءا من ثورة أحمد الهيبة التي ساندها القائد المخزني الأيتوسي محمد ولد احمد شياهو إلى فترة استقلال المغرب. كما أن قبائل أيت أوسى كانت تقدم الرجال والسلاح والمعونة في كل التحركات التي قادتها الزعامات المحلية أو الدينية بالجنوب المغربي، سواء ضد المخزن نفسه، أو ضد الأجانب في إطار عملية الجهاد ضد المحتلين: "الحمد لله وحده. (الطابع وبداخله: محمد المصطفى. مريبه رب. الله وليه

¹ رسالة سلطانية بتاريخ 5 رمضان عام 1319هـ/11 أكتوبر 1903م. المصدر: م. و. م. ر. ملف عدد: 13190905 Cote : A 18-079.

² رسالة السلطان إلى قبائل تكنة بتاريخ 19 رجب 1321هـ/11 أكتوبر 1903م. المصدر: م. و. م. ر. ملف عدد: 13210719 Cote : A 18-078.

³ Ismail HANET, Op. Cit. P 424.

وحسبه وكفى). خدامنا المرضيين جماعة عاسى كافة رعاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبعد، فقد وجهنا إليكم حملته أمناءنا المرضيين في شأن أعشار زروعكم المباركة وفرض الريال الذي فرضت القبائل إعانة للمجاهدين، فادفعوا إليهم الجميع بلا تراخ ولا توان كما أمركم الله تعالى [...] الله عليكم وأرشدكم وأصلحكم والسلام. في 12 رجب الفرد عام 1341هـ¹.

إلا أن التطورات التي عرفها المغرب عقب فرض الحماية غير من مجرى العلاقة بين القبائل بمجال وادي نون والصحراء وبين المخزن المركزي. لهذا، بدأنا نلمس من خلال مختلف الوثائق ذات الصلة، أن بعض الزعامات المحلية والتي قادت بعض التمردات في الجنوب المغربي بدأت تستأثر بتلك الفروض والكلف التي كانت توجه إلى المخزن المركزي. وهو ما لاحظناه في رسالة مرييه رب إلى قبائل أيت أوسى، ومن قبله رسالة محمد العالم إلى القبائل نفسها. واستمرت قبائل مجال وادي نون برمتها تدفع تكاليف الظرفية التي يمر بها المغرب عامة والجنوب المغربي بصفة خاصة طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فكلما تقوت شوكة الزعامات المحلية بالمجال إلا وتقلص نفوذ المخزن، وكلما خفت جذوة تلك الزعامات إلا وانصاعت القبائل من جديد لسياسة المخزن المركزي. إلا أن التحولات العميقة التي عرفتها البنية السياسية لقبائل أيت أوسى ومختلف قبائل تكنة بدأت تنكشف مراحلها الأولى مع استكمال الفرنسيين سيطرتهم على مجال الجنوب المغربي والصحراء مع تمم عام 1934م.

¹ رسالة من مرييه رب إلى جماعة أسا بتاريخ 12 رجب الفرد عام 1341هـ/1923م، توجد نسخة منها في حوزة الباحث.

خاتمة

كان للاحتلال الأجنبي أثره الواضح على علاقة القبائل بالمخزن المغربي، حيث إن بعض الزعامات المحلية والقواد، قد انخرطوا في المشروع الفرنسي عن وعي أو غير وعي. ومادام الاحتلال قد زكى نفس الزعامات نفسها في مناصبها وخول لها الامتيازات نفسها، فإن مسألة حضور المخزن أو عدمه لم تعد مجدبة في عرف القبائل، ووفق الظرفية السياسية الجديدة التي نشأت عقب الاحتلال الفرنسي. كما أن هذا الاحتلال أفقد القبيلة في الصحراء -بشكل خاص- كل مكوناتها ومقوماتها التي ورثتها عن الماضي والمبنية على العصبية الدموية والحمية والغزو والإغارة والترحال. وكان من نتائج هذا الاحتلال أيضا أن تملصت القبائل الصحراوية من أداء ما كان يُفرض عليها من الكلف والفروض المخزنية، وبذلك بدأنا نشهد فتورا في علاقة قبائل أيت أوسى وقبائل مجال وادي نون بالمخزن المركزي بدءا من سنة 1934م إلى حدود استقلال المغرب. وتعتبر فترة الثلاثينيات من القرن الماضي، مرحلة غامضة في تاريخ العلاقات بين قبائل أيت أوسى والمخزن المغربي. فبالرغم من وجود سلطات فرنسية تسيّر شؤون البلاد، وأحيانا باسم المخزن، فإن قبائل أيت أوسى وباقي قبائل تكنة عادت إلى وضعيتها في إطار الصراعات القبلية، والصراع على المجال، مثل ما حدث بين أيت أوسى، وأيت أمريط. وبينهم وبين قبائل الركيات، وبينهم وبين قبائل أيت ابراهيم. ويحتاج موضوع البنية السياسية لقبائل أيت أوسى وقبائل الجنوب المغربي عامة لما بعد سنة 1934م، إلى دراسات مستقلة ومستفيضة نظرا للمستجدات التي عرفها تاريخ المنطقة جراء الاحتلالين الفرنسي والاسباني للمجال.

المصادر والمراجع

- وثائق مديريةية الوثائق الملكية بالرباط. المملكة المغربية.
- وثائق دار إيليج 2، فرع إنزكان.
- إبراهيم بن علي الحساني، ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، تحقيق عمر أفا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، 1989.
- الشيخ موسى كُمرًا (ت.1945م)، تاريخ قبائل البيضان عرب الصحراء الكبرى، تحقيق الدكتور حماد الله ولد سالم، قسم التاريخ - كلية الآداب جامعة نواكشوط (موريتانيا)، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2009.
- حمدو بن محمد، وثائق من التاريخ الموريتاني، نصوص فرنسية غير منشورة، ترجمة وتحقيق وتعليق، تقديم د. عبد الودود ولد الشيخ، منشورات جامعة نواكشوط، الطبعة الأولى 2000.
- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرائية والفكرية منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر، الجزء الثاني: من نشأة الدولة العلوية إلى إقرار الحماية، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، طبعة 1430-2009.
- أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، إينولتان 1850-1912، منشورات جامعة محمد الخامس أكادال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، أطروحات ورسائل 1، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1403هـ/1983م.

- دانييل شروتر، تجار الصويرة، المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب (1844-1886)، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة 6، الرباط 1997.
- عادل النفاقي، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغرب حفريات في أدب الرحلة-القرن 16، في الهوية والتدين والثقافة، إفريقيا الشرق، المغرب 2015.
- عبدالرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار، قبائل إيناون والمخزن ما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 25، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1995.
- محمد زرهوني، العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر (1863/1280-1873/1290)، جامعة الحسن الثاني - عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل: 5، مطبعة فضالة المحمدية، الطبعة الأولى 1998.
- محمد مزين، فاس وباديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549م-1637م، الجزء الثاني، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 12، الطبعة الأولى 1406-1986.

الأطاريح الجامعية

- محمد أمنصور، البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن، لمحمد بن ابراهيم السباعي المتوفى 1332هـ/1914م، تقديم وتحقيق، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، الجزء الأول، تحت إشراف د. محمد الأمين البزاز، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 2002/2001 (مرقونة).

المقالات العربية

- أحمد العماري، نظرية التحديث والمواجهة عند علي السوسي السملالي من خلال كتابه: "عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة". ضمن كتاب: ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 7، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى 1983.

المراجع الأجنبية

- Augustin BERNARD et Paul MOUSSARD, Arabophones et Berbérophones au Maroc. In : Annales de Géographie. T 33. N°183. Paris 1924.
- Congrès de l'Afrique du Nord, Tenu à Paris du 6 au 10 Octobre 1908. Compte Rendu des travaux. Publié par : M. Ch. DEPINCE, Chef de Service à l'Union Coloniale Française, Secrétaire Général du Congrès. Tome II, Questions Indigènes (Enseignement. -Justice. -Institutions Religieuses. -Conditions de Vie Matérielle.) Maroc (Questions Politiques et Economiques) Paris 1909.

- ISMAEL Hanet, (Direction de l'Institut des Hautes Études Marocaines, Histoire du Maghreb), La France en Algérie, Cours Professé à l'Institut des Hautes Études Marocaines. Éditions ERNEST LEROUX. Paris 1923.
- Paul MARTY, Les Tribus de la Haute Mauritanie, Publication du Comité de l'Afrique Française, Paris 1915.

الأطاريح بالفرنسية

- Rachid AGROUR, Le Mouvement Hibiste et les Tribus Berbères de L'Anti-Atlas un Histoire de la Périphérie (Sud-Ouest Marocain) Face au Pouvoir Central (1910-1934), Université PARIS I, Panthéon Sorbonne 2009.